

القيم التشكيلية في أعمال الواسطي :

أ. العالم بن عزوز العائدي

جامعة وهران

1- الواسطي :

هو ذلك الرجل الذي مر عبر التاريخ ببساطة وأبدع في فنه وأعطى الكثير في زمانه وسرعان ما أخذته نشوته فانعكس في فنه إلى درجة أنه لم يترك لنا تعريفا مفصلا عن شخصيته وحياته المفعمة بالنشاط أو حتى تاريخ ميلاده حتى تعرف أكثر على المبدع الذي خلف لنا العديد من الصور الرائعة التي لم يمر عليها أي باحث أو دارس إلا ووصفها بالعظمة والتميز.

إنه ذلك الفنان الذي لم يترك لنا إلا ثلاثة أسطر تناقلها الباحثون وسجلها التاريخ ككثرة مفقود، ولعل سبب هذا الإهمال في تسجيل تواريخ المبدعين في مجال الفنون التشكيلية الإسلامية يعود إلى نظرة المسلمين المتوارثة عن استهجان الرسم بصفة خاصة والتصوير بصفة عامة، والنظر على أنها محرمة والاكتفاء بجعلها للزينة فقط خاصة في العصر العباسي إلى درجة أن أسماء كبار التشكيليين لم تحتل فهارس الكتب ولكن مبدعنا هذا حظي بالقليل عكس أولئك الذين عثر على أعمالهم ولم يتسن لنا معرفة ولو أسمائهم فقط.¹

هو الواسطي يحيى بن محمود بن يحيى بن أبي الحسن كرويهما، رسام، ومذهب وخطاط عربي ولد بقرية "واسط" (وقد قيل واسط لتوسطها بين "المصريين" ألا وهما البصرة والكوفة بينها وبين كل واحدة منها أربعون فرسخا، وقد أسسها الحجاج عام 83م وبها مات 95م)² جنوب العراق بداية القرن الثالث عشر ميلادي وبهذه البلدة الصغيرة تعلم فن التصوير وبرز مهاراته بها، ويعتبر أول مصور إسلامي ويعود له شرف تأسيس "مدرسة بغداد"

¹ - ويكيبيديا - الموسوعة العالمية 17 مارس 2014 - 16:45

² - محمد بن عبد المنعم الحميدي (الروض المعطار في خبر الأقطار) معجم جغرافي - الطبعة الأولى مكتبة لبنان 1975م - ص 600

للمنمنمات وهو صاحب أول كتاب مصور بالإضافة إلى هذا كله فهو أول من أقام معرض فردي في تاريخ الفن العربي.

1-1 - حياته :

يعتبر الإنسان بطبيعته ذو إحساس في شتى مجالات الحياة، ولأنه يطمح دوماً للتسامي روحياً وجسدياً وجب عليه البحث في كل المجالات عن كل ما يمكنه من تحسس لحظات المطلق خاصة على وجوده المادي، ومنه بدأ بالتعبير عن أفكاره وآرائه وإبراز خبراته وترجمة جمالياتها وهو ما يمثل صورة خارجية عن كل الأحاسيس التي في أعماقه مستعملاً في ذلك أنجع الوسائل ألا وهي الفن الذي يعتبر الأسلوب الأنسب لمخاطبة النفس البشرية بكل صدق، الذي يصوغ لنا الجمال الذي يمثل أسمى مظاهر الحقيقة الروحانية عندما تتجسد على شكل حسي معبر.

ولقد أفرز لنا الفكر الإسلامي مفهوماً جمالياً موحداً ، تجلّى لنا في المنمنمات التي سرعان ما استوعبها الفن الإسلامي، والتي حملت ملامح عربية متميزة من الملامح الجمالية للصورة المصغرة (المنمنمة).

وقد تمكن الفنان "يحيى بن محمود الواسطي" من تحويل الصورة الذهنية إلى واقع حسي، لا كما يتمناه أو يجسد الأحلام والخيال، واستطاع أن يجمع بين التأثيرات المسيحية الشرقية والتأثيرات الإيرانية ويأتي لنا منها بأسلوب إسلامي خالص، وقد كان الواسطي مثقفاً واسع الاطلاع حيث يقول في الصدد الأستاذ والمؤرخ "ميخائيل عواد" في كتابه الذي يؤرخ فيه ويدرس حياة الواسطي (يحيى الواسطي شيخ المصورين في العراق): "ويعد يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي في طليعة المصورين في العراق في هاتيك الأيام، بل هو شيخهم وأستاذهم وإمامهم في هذا الفن الجميل".

وهناك من يرى أنه قد تأثراً كبيراً بكل من جاء من قبله من فنانيين وفنون وحتى بحداريات الأشوريين وبكل الفنون ببلاد الرافدين القديمة.

وباعتباره من الطبقة المثقفة التي لطالما بحثت عن العلم و أرادت التحصيل الجيد وهذا ما يتجلى لنا في اطلاعه على شتى العلوم تكمن من اكتساب الخبرات التي استطاع توظيفها في فنه لتلائم مع تحصيله خاصة في كتب الطب والفلك والفلسفة والتاريخ منذ بداية العصر الأموي، وقد كانت أعماله على سعة من الاطلاع خاصة في مجتمعه الذي انجذب إليها وأصبحت عزيزة إليه وهذا لما فيها من دقة في الألوان والأشكال المختلفة التي جسدت بكل صدق عن واقعهم كمن طبيعة وعادات وتقاليده.

وقد كان له شرف معاصرة ثلة من أنباء بلاد الرافدين خاصة المفكرين منهم مثل :

"ابن الرزار الجزري - ابن الأثير - ياقوت الحموي (جغرافي)"

ومما لا شك فيه أن تلقيه بالواسطي ما هو إلا دليل واضح على أنه لم يتركز بمدينة "واسط" بل أنه شد الرحال نحو وجهة أخرى وأصبح من الغرباء على محيطه ولذلك عرف بالواسطي، والأرجح أن تكون وجهته بغداد لما عرف عنها في ذلك الوقت من ازدهار في شتى العلوم والانجازات خاصة بميدان الفنون وبها مارس الخط البغدادي وتعلمه على يد امهر الخطاطين، وقد كثف جهوده مع عديد النقاش والمزخرفين والخطاطين لإعطاء منتج غاية في الجمال والذي كان مقتصرًا على الحكام والخلفاء الذين اهتموا بالجودة في الأعمال الفنية لتحلية قصورهم، والتي كانت في مجملها تصور المطلق من خلال معطيات دينية ولاحوائها على لفظ الجلالة الذي هو لب هذا الفن وكذلك لما لها من ملاءم للفراغات.

ومن خلال اطلاع الحكام والخلفاء الراشدين على أعمال الواسطي فقد كان مطلوبًا لدى البلاط فناده "الخليفة المستنصر بالله العباسي" ليشغل لديه كرسام ما بين عامي 1242م - 1258م وهناك استطاع تجسيد صور توضيحية لساحات المعارك والانتصارات المحققة والحياة البسيطة والشعبية لمجتمعه العراقي بكل حسن وبهاء ومن هنا لم يكن منتجه ماديًا منفصلاً عن الإنسان أو الكائنات أو الأشياء بل هو مرتبط بمحيطه ارتباطًا وثيقًا فجسدت لنا أعماله مجموعة من القيم التي تجمع أفراد المجتمع كالحبة والأخوة والمسرة والتصالح والطمأنينة.

وقد حظي الواسطي بالشهرة في هذا الفن لما عرف عنه دقة في التفاصيل والثراء الكبير في الألوان التي تشد إليها عين المتلقي وتحول داخل العمل الفني لتتكامل في ذهنه الصورة.

وكدلالة على أهميته كحلقة لا يمكن تجاوزها عند المرور بفن المنمنمات وعلى عكس ما غفل عنه الكثير في عصره فقد احتل اسم الواسطي عديد عناوين المؤلفات والأبحاث الأجنبية بصفة عامة والعربية خاصة منها كتب لميخائيل عواد وثروت عكاشة، جورج عيسى وعفيف بهنسي وقد أبدى الفنان العراقي سليم اهتماما كبيرا بفنه وتأثر به، ويبقى كتاب "التكوين وعناصره التشكيلية والجمالية في منمنمات الواسطي" للدكتورة وسما الأغا من أجود ما تطرق إلى أعمال الواسطي.

وبالإضافة إلى هذا كله أقيم ببغداد سنة 1972 مهرجان أقل ما يقال عليه أنه كبير حمل اسم الواسطي ، وبمدينة الزوراء وكتخليد لروح الفنان نصب تمثال له يظهره جالسا على كرسي حاملا بين يديه المقامات المشهورة (مقامات الحريري) وبرز اسمه في عديد الدراسات والأبحاث لعدة من المستشرقين أمثال "ماسينيون" وبهذا يكون قد اخذ حيزا لبأس به في فهارس الدارسين والنقاد.

1-2- فنه :

لقد تطرقنا في دراستنا هذه إلى أن الواسطي قد كثف جهوده مع عديد الخطاطين والنقاش وهذا ما يدل لنا على العلاقة القوية التي جمعت بين الخط والصورة أو بالأحرى ارتباط فن الكتابة بفن التصوير مما يجسد لنا معالم التصوير العربي الذي ارتقى إلى أعلى درجاته في أعمال الواسطي، ليأتي لنا بنهضة فنية وأدبية رافقت الحضارة العربية من خلال نسخ الكتب وتزيينها وتذهيبها، فأصبح المخطوط الأدبي ذا أهمية فنية كقيمة جديدة بالإضافة إلى قيمته وأهميته الأدبية وهو ما ذهب إلى بعد الحدود ليحسد لنا هوية عربية متميزة.

فقد حمل المخطوط الأدبي جملة من المعاني والمواضيع المختلفة التي شددت انتباه المتذوقين من أدباء ومثقفين وقارئین وهذا ما حز في نفوسهم حب الاطلاع فصبحت محببة لديهم، ومن هنا لم يعد لاستهجان التصوير عند المسلمين من حرج، وفي هذا الصدد فقد لعب الخلفاء الراشدون الدور الهام وهذا لما حوته قصورهم من صور ورسوم دون حرج في ذلك.

وعرف فن تزويق المخطوطات وتذهيبها في العراق شهرة واسعة ولاقى استحسانا من أفراد المجتمع آنذاك وهو ما ساهم في تطوره على مراحل، ونجد أنه ومن بين ابرز المتفوقين في هذا الميدان فنانا المتميز : يحيى بن محمود الواسطي والذي لا يسعني أن أقول عليه إلا كلمة واحدة معبرة وهي "المثاق" وأشير هنا إلى أنني لا اتفق مع بقية الدارسين حول إطلاق مصطلح "المصور" عليه وهذا لما تحمله الكلمة من دلالة على اسم من أسماء الله الحسنى خاصة وأن فنه ينسب إلى الإسلام بل إن هناك عديد المصطلحات التي تدل على التمكن والتميز، وهذا لما عرف عنه انتقاء للألوان التي عادة ما كان هو منتجها، ويمكن يقول ان الفن الذي اختص به هو فن شعبي خالص لما حمله من تعبير عن روح الجماعة ولما يحمله من قيم عادة ما لازمت قيم المجتمع، ويبرز لنا جليا أن أعماله غنية بالرموز والإشكال والألوان التي أبرزت لنا الجانب الخفي لأمة قد سبقت من خلال تجسيد عاداتهم وتقاليدهم آنذاك ولكن الشيء الواضح والمؤسف أن معظم أعماله لم تؤرخ ولم توثق إلا القليل منها والتي عثر عليها الباحثون في ميدان الآثار، ولعل عدم اهتمام هؤلاء بالفنون هو الاهتمام المطلق بالأشياء الثمينة فقط.

ولتزيين أعمالهم فقد لجأ الفنانون إلى خامات وألوان متوفرة مع مراعاة لإمكانياتهم المادية المتواضعة، وقد اعتمد الواسطي في ألوانه على مزيج غني يبرز لنا دقته في التعاطي مع الألوان فقد تبين بعد تحليل ودراسة لخاماته المستعملة أنه كان يلجأ إلى حرق ألياف الكافور ممزوجة بزيت الخردل النباتي والمداد الأسود والتي كانت سريعة الجفاف لتأثرها بالعوامل الطبيعية من حرارة ورطوبة، وعامة ما كان مزيج ألوانه من أسرار المهنة التي هي سر نجاحه وتحقيق الدقة في أعماله الفنية.

ويمكن الحديث مرة أخرى عن الواقع الاجتماعي الذي عاشه أهل مدينة بغداد فقد احترم الواسطي في رسمه الآداب العامة للمجتمع، وقد اهتم بالعنصر الذكري في أعماله لما يمثله الأخير من ركيزة في المجتمع تتمثل في المسؤولية وتحقيق الأجداد وصنع للانتصارات، إضافة إليها فقد بالبيئة الصحراوية التي جسدت تركز أبناء جلدته وهذا ما يتضح لنا في الكائنات الحية من جمال وأشجار ونباتات صحراوية دون إهمال الرمال والعمارة التي كانت سائدة آنذاك، وإلى جانب هذا كله فقد وضع لنا صورة أخرى من خلال أعماله تمثل الأزياء والثياب من عمام على ما أثرت به من عصره واشتهرت في العراق وسورية والجزيرة العربية علاوة على ما تأثرت به من حكايات أخذت شهرتها في التاريخ على غرار الحضارة الصينية القديمة.

ويعد أقدم كتاب ملم ومزوق بأنامل الواسطي هو كتاب "الترياق" الذي ينسب إلى جالينوس وهو محفوظ بالمكتبة الأهلية بفرنسا، وللتذكير فإن أقدم تحفة فنية تجسد لنا مخطوطة مزوقة هي تلك الموجودة في أكسفورد ألا وهي كتاب "صور الكواكب" لعبد الرحمان الصوفي والتي تعود إلى أواخر القرن الحادي عشر ومؤرخة سنة 600هـ. ويبرز لنا اسم الواسطي كواحد من أهم مصوري "المقامات" بصفتها من الكتب المزوقة الغنية بالصور والتي أضفت الجديد على فن المخطوطات العربية، وتعتبر مقامات الحريري¹ من أشهرها والتي ظهر فيها اسم الواسطي بقوة وهذا لما حملته من أعمال منمنمة بأسلوبه، وقد خطت هذه المقامة أواخر القرن 6هـ وهي عبارة عن مجموعة حكايات مصورة والتي جاءت بأمر من خليفة الوزير المسترشد (شرف الدين أنور شروان بن خالد بن محمد) وهناك من يقول أنها جاءت بأمر من الوزير جلال الدين عميد الدولة آنذاك وقد كان كاتبها أبو محمد القاسم بن على الحريري البصري الذي ولد في البصرة سنة 466هـ/1054م وعددها 50 مقامة ضمت 94 صورة بقياس 37 سم x 28 سم في مجمل 99 صفحة والتي كان بطلها "المطهر ابن سلام" المكنى بأبي زيد السروجي وهو من خيرة اللغويين في البصرة، بالإضافة إلى تقمص الحريري لشخصية الحارث.

وتوجد عدة نسخ محفوظة لهاته المقامة منها نسخة موجودة بأكاديمية العلوم بنرسبورغ بروسيا مؤرخة ببغداد سنة 1235م تحت رقم 1625 بالإضافة إلى نسخة "حريري لينغراد" الموجودة بالمتحف الآسيوي وثلاثة نسخ بالمتحف البريطاني ونسخة في دار الكتب الوطنية بفيينا ونسخة أخرى باسطنبول نسخت في عصر العباسيين وثلاث أخرى في مكتبة باريس منها نسخة "القديس فاست" تحت رقم 3929 عربي ترجع إلى حوالي القرن الثالث عشر ميلادي، ولكن تبقى أبرزها تلك الموجودة بدار الكتب القومية بفرنسا باسم "الحريري شفر" تحت ترقيم 5847 وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مشتريها وهي المخطوطة التي قام الواسطي بتوشيحها وتحليلها بصوره الرائعة سنة 1237م/634هـ وهي النسخة الكاملة ومجلدة بالجلد الطبيعي الأصلي مما ساهم في الحفاظ على عدد أوراقها المائة وسبعة وستين مقياس 38سم/28سم تحتوي كل ورقة منها على 15 سطرا خطت بخط النسخ المنقط بحبر أسود مائل إلى الاحمرار.

ومن الواضح أن الواسطي بذل مجهودا كبيرا في تذهيبه وتزيينه لهذه المقامات التي قارب عدد نسخها الخمسمائة نسخة التي كان الحريري هو المسئول عنها ولكن ما يجب أن نقف عنده أن جل مخطوطاته لم يتم تحديد مكان إنجازها بل الاكتفاء بالتاريخ لها وهو ما رجح أن تكون بغداد مسرحا لها وليس مدينة واسط التي ينتمي إليها حيث نجد في آخر مخطوطه وبخط يده عبارة تقول (فرغ من نسخها العبد الفقير إلى رحمة ربه وغفرانه وعفوه، يحي بن محمود بن يحي بن كرويه الواسطي بخطه، وصوره آخر نهار يوم السبت سادس شهر رمضان سنة 634هـ، حامدا الله تعالى...)

وقد عكست مقاماته الخمسون جملة من التناقضات والسلبيات التي سادت المنطقة بعد زوال الخلافة العباسية، وكانت معظم رسوماته نابضة بالحياة والتي جسدت لنا مشاهد عن الواقع الاجتماعي في العالم الإسلامي آنذاك خاصة في الأسواق والبيوت والقصور أو أماكن العبادة مما يكسبه الدور الفعال في دراسة المجتمعات الإسلامية العربية وأحوالها وعاداتها وتقاليدها بصريا من خلال أعماله.

من خلال مشاهدة أعمال الواسطي يبدو لنا جليا أسلوبه الفردي الخاص في التصوير من خلال الأشكال وتوزيعها ودقة الألوان ولما تحمله أعماله من قيم جمالية وتشكيلية أخرى مما حفزه على الإبداع حتى بلغت أعماله الشهرة، فتسابق الحكام والملوك خاصة ملوك الموحدين بمراكش وغيرهم على اقتناء أعماله لما فيها من زينة وعضة خاصة بعد إقامته لأول معرض شخصي في العالم العربي.

نشأ التصوير العربي في أول عهده متأثرا بفنون الحضارات السابقة له ، فقد بدا تأثير الفن الهيليني البيزنطي واضحا في الشام ، أما في العراق فقد كان تأثير الفن الساساني جليا . و يمكننا الإشارة إلى أن بعض المصورين قد رسموا صورا لبعض الحوادث في السيرة كميلاد النبي و مقابلته للراهب بحيرا في الشام و وضع الحجر الأسود في الكعبة بيد النبي ، و الهجرة و الإسراء و المعراج و تكسير النبي للأصنام و لكن هذه الصور نادرة وليست بذات قيمة فنية أو دينية .

كما وصلت إلينا بعض الصور و التزاويق من العصر العباسي ، وجدت على بعض الجدران في أطلال مدينة (سامرا) و أكثر هذه الصور أهمية رسم لراقصتين يشهد بما كان للأساليب الفنية الفارسية من تأثير على التصوير العربي الذي عرف أبعادا أخرى ، وطرق آفاقا جديدة بعد توسع الفتوحات الإسلامية ، نتيجة تلاقحه و تمازجه بالثقافات الإسلامية المختلفة التي لم تكن عربية الأصل ، و التي كانت تمتلك تراثا و تقاليد فنية لم تكن لدى العرب المسلمين ، وقد كان لها دورها في إثرائه بأساليب و عناصر جديدة . و كان نتيجة لذلك ظهور المدرسة العربية ، التي انطبعت بأسلوبها المميز لها عمّا سواها من مدارس الفن الإسلامي، كالمدرسة الإيرانية ، المغولية ، و الهندية . تعتبر المدرسة العربية أقدم مدارس الفن الإسلامي على الإطلاق ، وقد كان انتشارها منحصرا في البلاد العربية وازدهرت مراكزها خاصة في بغداد و الشام و مصر و الأندلس . يذكر التاريخ من مصوري المدرسة العربية في بغداد عبد الله بن الفضل الذي كتب و أنجز تزيينا بالرسوم لكتاب ” خواص العقاقير ” ضم ثلاثين صورة موزعة بين متاحف العالم . كما اشتهر من مصوريها يحيى بن محمود الواسطي ’ الذي زين عام (1237 م

– 634 هـ) كتاب ” مقامات الحريري ” المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس . ويبدو أن الواسطي أنجز تزيينا لكتاب ” كليله ودمنة ” الحكايات المعروفة كما ينسب إليه تزيين كتابين آخرين هما : ” الترياق ” و ” الأغاني “.

لقد كانت تجربة الواسطي التصويرية مثار اهتمام الكثير من المهتمين والمشتغلين بتاريخ الفن والنقد التشكيلي ، وبؤرة تحليل للكثير من العرب والأجانب على السواء ، فقد قال عنها المستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسنيون ” بأنها من أروع الأعمال الفنية الموجودة اليوم “ . أما المستشرق بلوشيه . فقد قال بأن الواسطي ” استطاع أن يأتي بأروع ما أنتجته المدرسة البغدادية ، وهذا يعطي الانطباع أن هذا الإنتاج الفني هو أحسن ما يمكن أن يشار إليه بالنسبة لذلك العصر ” .

كما تعرض الروائي والناقد جبرا إبراهيم جبرا لنفس التجربة . مؤكدا على أهميتها وأصالتها . ويشير الروائي رشيد بوجدره في روايته ” الإنبهار ” إلى منمنمة ثمينة جدا رسمها الواسطي عام 334 للهجرة ، وتمثل القائد طارق بن زياد مع مجموعة من الجنود أمام صخرة مضيق جبل طارق . الذي إستولى عليه عام 711هـ . ولا نحسب ذلك إلا حقيقة موضوعية قائمة .

والواقع أن تجربة الواسطي مع التصوير تجربة تأسيسية رائدة و مبكرة في مسار التشكيل العربي خاصة و الإسلامي عامة ، و قد تنبّه جواد سليم بوصفه أحد أهم التشكيليين إلى أهمية الواسطي من خلال التنويه بقيمتها ، ومن خلال استعادتها وتمثلها تشكليا ، في تجربة ” جماعة بغداد التي كان أحد مؤسسيها والفاعلين فيها ، قائلا عن صورته (الجارية و الجمال العشرة) في إحدى رسائله في أوائل الأربعينيات :

” إنها صورة مجموعة من الجمال ، و جمال العراق تعرفها جيدا ، لا يتعدى لونها لون التراب ، ولقد صورها هذا العبقرى العظيم كل جمل بلون يتناسب مع اللون الذي بجانبه فكان الانطباعي الأول “.

كما استعادت جماعة البعد الواحد في العراق ، وعلى رأسها شاكر حسن السعيد ، الذي خصه بدراسة مهمة تناولت ” الخصائص الفنية والاجتماعية لرسوم الواسطي ” تناول فيها مفهوم البعد الثالث في لوحات الواسطي بالقول : ” .. أجل سبق لمحاولات من هذا القبيل أن أنجزت إلا أن الأمر يختلف لدى الواسطي هنا في كونه – البعد الثالث – يسقط من حسابه عامل البروز في النحت التسطيحي كبعد (عمق) مستبدلاً بإياه بعامل اللون والإضاءة ، وهما وسيلتان من وسائل التسطيح التصويري. بمعنى آخر إن اللون والضوء والعمق ستؤول في السطح المرسوم الدور الذي يتولاه البعد الثالث وهو العمق في فن التسطيح من إبراز في المنظور والتجسيد في نفس الوقت مع انصياعهما للعالم الذي يتجسدان فيه ” . ومن شهاداته على أهمية منجز الواسطي قوله : “إن أهمية الواسطي الفنية هي أنه استطاع بطريقة تعبيره إقناعنا بأن ثمة عالماً يمكننا باستطاعته أن يستند على عالم عياني في استشفاف الحقيقة ودون أن ينقله “.

إن فن الواسطي يقول محمد خدة ، فن فريد كل التفرد لأكثر من سبب فهو يشير إلى ظهور أسلوب عربي متميز ، أحدث قطيعة مع الكلاسيكية البيزنطية و الإيرانية ، كما أحدث قطيعة مع التقاليد القديمة حين كشف عن اسمه ، ولذلك فإن الواسطي في حدود معلوماتنا هو أقدم فنان وصلنا آثاره التصويرية.

إن لوحاته التي تزين ” مقامات الحريري ” شواهد نفيسة بإحالتها الدقيقة على المناظر الأزياء و المعمار السائد في تلك الفترة ، وتكشف عن ملكة و حس فني و ملاحظة دقيقة تتجلى في شغف الواسطي بإبراز الأوضاع و التعابير و حركات الشخص و في هذا الصدد يقول خدة ، ..يجيء فن ” مصور بغداد ” في أوانه لكي يدحض ما يروج له بعض مؤرخي الغرب القائلين بعدم وجود تجسيد للوجه الإنساني في الفن الإسلامي لأن ذلك محرم ’ لكن التاريخ يشهد على وجود الفن التشبيهي قبل الإسلام. وبعد أن هدم الرسول صلى الله عليه وسلم الأصنام المحيطة بالكعبة ’ تعبيرا عن التوحيد المطلق

هناك سمة أخرى ملفتة للنظر في فن الواسطي - يضيف خدة - وهي أنه فنان مولع بإبراز المظاهر الشعبية، والحياة العادية و الانشغالات اليومية لمعاصريه ، وهو الموضوع ذاته الذي تعرض له الحريري في مقاماته من خلال بطلها أبي زيد السروجي . لكن صور الواسطي تتجاوز الحدود الضيقة للكتاب ، و تمنحها فضاءات أخرى للتعبير المغاير ..

ثم يوضح ذلك الخلط الذي وقع فيه الكثير من المؤرخين 'بين مدرسة بغداد و مصورها الأساسي ، إذ وصفت أعماله بالواقعية بل بالتشبيهية و ذلك - في نظر خدة - خطأ كبير إذ لا يكمن حصره في هذه الميزة البسيطة، رغم أنه سارد ذكي يبدع في رسم

حركات معاصريه ، لأن لوحاته فضاءات مفتوحة تحتمل أكثر من قراءة... إن يحي الواسطي - و الكلام لمحمد خدة - مصور بكل ما للكلمة من معنى ، فهو مبتكر، انشغل دوما بإعادة تنظيم فضاء ظل يعاني من الاختناق و الانحسار ، انه يمنح الهواء ، يوزع الفراغات ، مما يعطي لتركيباته تبويبا جيدا ، وتوازنات رائعة .

ولقد قاده بحثه - أي الواسطي - من أجل فضاء تصويري جديد إلى إعادة النظر في قوانين المنمنمات وكسر إطارها العام ، لكننا لحد الآن لم نول الأهمية اللائقة إلى هذه الثورة التي شكلت قطيعة حقيقية مع جمود ظل سبعة قرون يحكم فن المنمنمات ...

بخلخلة الفضاء ، كان الواسطي يهدف إلى معالجة مسألة الثبات و الجمود الذي وسم معظم الأعمال الخطية لعصره ، و نعطي هنا مثالا عن المقامة الثانية و الثلاثين و هي قطع الجمال على مشارف المدينة التي تبرز بوضوح انشغال المصور بالحركة و الخط ، فنحن بصدد موجة رائعة من الجمال المتحركة، تزيد من حركتها وضعية سائقها يديه التي تحدها ، و كأنه قائد اوركسترا الجمال ...

(ق و م) مشتقة من الفعل يقوم قوما، وقومه وقياماً وقام، انتصب أي وقف فهو قائم (اسم الفاعل): واقف والمقامة بفتح الميم جمعها مقامات وتعني السيادة والمجلس الجماعة من الناس، الخطبة أو العظة أو الروايات التي تلقى في مجتمع الناس وعنهما مقامات الحريري.

أما في القاموس المحيط فقد عرفت المقامة على أنها : المجلس والقوم... وفي شرح القاموس المحيط المجلس ومقامات الناس : مجالسهم، وإن بديع الزمان الهمذاني جعل كلمة 'مقامة' علماً للنوع الأدبي الذي هو حزب من النثر الذي له خصائصه ومميزاته الفنية، والمقامة أيضاً لا تخلو من بعض الاحتيال وهي في حقيقة الأمر انعكاس لأهل ذلك العصر¹.

أما في "لسان العرب" لابن منظور فيقول : إن (المقامة) بفتح الميم تعني المجلس أو الجماعة من الناس وقيل أيضاً أنها جاءت للدلالة على مجلس القبيلة وسيادتها، وقيل أنها الموعظة، ويعتبر هذا التعريف هو الأقرب لدراستنا هذه كون المقامة تعني العظة وهي الجزء الذي لا يتجزأ من الحوارات الأدبية.

يعتبر التذوق الفني من أساسيات العمل الفني ومقوماته لما فيه من تحليل وتقييم للأعمال الفنية المستهدفة سواء أكان من جانب تذوق القيم التشكيلية من خطوط وألوان وتكوين.. أو من الظروف التي أحاطت بالعمل الفني باختلافها سواء أكانت اجتماعية أو ثقافية ودينية... الخ، وهو ما يمكننا من الإحساس بالفن من خلال التأمل العميق الذي يعتبر من أبرز مراحل التذوق الفني لطبيعة العمل المنجز.

ولاختلاف البشر من طبيعة جغرافية إلى أخرى وتعاقب الزمن واختلاف البيئة من حضارة إلى أخرى تليها فقد تعدد أساليب الإبداع الفني والتعبير عن المكونات والآراء وهذا بإتباع عدة طرق منها التعبير بالأشكال أو الألوان أو الخطوط والتي هي في مجملها من سمات الفن التشكيلي، فقد اعتمد الإنسان على كل ما يحتاج إليه في التعبير بكل ما هو محيط به في الطبيعة ومنها استخلص مواضيعه وخاماته باختلافها والتي أتت لنا بجملة من المؤثرات

¹ - الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب (القاموس المحيط) مطبعة ألمانيا - مصر / جزء 22 ص 170

الجمالية ومن هنا فقد خلق لنفسه طريقة للتعبير عن انفعالاته التي عادة ما شارك بها غيره مما ساهم بشكل كبير في نقل التجارب والخبرات لديه لأشخاص آخرين.

والجدير بالقول أن الواسطي قد أبدى اهتماما كبيرا بالشكل العام الذي لعب دورا كبيرا في تحديد العمل الفني في مجمل الفنون التشكيلية وهذا لاحتوائه على مكونات عمله الفني من ألوان وخطوط عناصر التكوين وملاء الفراغ في منمنماته مما سمح لنا بالتعرف أكثر على نمط العيش في عصره واكتشاف العادات والتقاليد التي كانت رائجة آنذاك، ووصف العمارة التي حملت من التفاصيل كالقصور والقباب والجسور الخشبية والأسواق والجدران والمنازل وما حوته مفروشات وأثاث استخدمها أفراد مجتمع آنذاك وبالرغم من أسلوبه التجريدي البسيط فقد أتقن رسم الحيوانات من نوق وجمال وخيل وطيور بخطوط لينة وبألوان زاهية وهو ما نلاحظه أيضا في رسمه للنباتات والأشجار برغم قلتها في أعمال الفنية.

والأمر الظاهر لنا في منمنمات الواسطي أنه أبدى اهتماما منقطع النظير للخط في أعماله (دون إهمال القيم التشكيلية الأخرى) خاصة استعمال الأقواس أو الاعتماد على إنصاف الدوائر في تشكيلاته الفنية التي اهتمت بحدود الصورة مما خلق لنا تشكيل ملامح متميزة عبرت عن ذاته التي لا تتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي. وفيما يلي سنجري دراسة شاملة عن القيم التشكيلية في منمنمات الواسطي لتوضيح معالم وسر تلقيه بالمصور.

- الأبيض :

وهو لون الصفاء وقد استعمله كمدخل لتصميم اللوحة كونه من أقدم الألوان استخداما لدى المسلمين وهذا لما من قيم دينية وأفكار صافية وقد جاء في منمنماته كدلالة على الطهارة والنقاء وقد خص به الواسطي بعض الأشخاص في أعماله للدلالة على أنهم من الرجال ذوي المكانة الهامة كأشخاص طهورين ومتمكنين من عاليم

الدين، وهذا ما عززته لحاهم البيضاء لتؤكد لنا توظيف اللون الأبيض لما يلي ما يتوافق مع مبادئ وقيم المجتمع المسلم وعدم التحريف الهروب وإلى تجسيد الفكرة بطريقة لا تتلاءم مع موضوعه.

- الأسود :

وقد كانت وظيفته الأساسية تحديد الأشكال وإيضاح بعض التفاصيل وقد جاء استعماله بنسب متفاوتة من مخطوطة إلى أخرى وقد يكون السبب لقلّة استعماله هو استهجان المسلمين للون الأسود كونه رمز للموت والجهول ولهذا فقد استعمله الواسطي كتحديد لظلال الأشكال خاصة العمارة وبعض الحيوانات من طيور وأبقار وماعز، وقد ميز به لحى المسلمين آنذاك التي خصت الوجوه المستديرة بالإضافة إلى بعض الألبسة والأثاث.

3/2 الفراغ :

وبالحديث عن الفراغ فللملاحظ أن الفنان المسلم لم يعد يشكل لديه أية إشكالية لأن النور الإلهي الذي سيطر على مخيلته لم يترك مجال من الفراغات فملأها بكتل وأحجام مختلفة، لأن الفراغ حسبه ما هو إلا بؤرة أو طريقة سهلة للتفكير السيئ والوقوع في الموبقات ومن هنا فقد تجنبه وقد لجأ ذلك إلى جمل من الخطوط والمساحات الهندسية لملأ الفراغ داخل أعماله من مناظر طبيعية إلى العمران والكائنات الحية.

ويبدو لنا جليا أن الواسطي قد اهتم كثيرا بملء الفراغ فقد ذهب إلى تغطية السطوح في منمنماته سواء أكانت من العمائر أو المناظر الطبيعية ذهابا إلى الكائنات الحية المختلفة وهذا من خلال ربطها بنظام الزمان والمكان بالإضافة إلى تباين الألوان في حركتها بين الظلال والنور وقد ذهب الفنان بعيدا بتشكيلاته المختلفة ليحقق لنا الإحساس بالاتساع داخل أعماله وهذا ما نتج عنه شرود الخيال خارج اللوحة المنجزة وإطلاق العنان في التصورات مما يتماشى مع النص المكتوب¹.

وقد لعب ثلاثي اللون والشكل والخط دورا هاما في ملاء الفراغ، ولكن ملا يجب أن نغفل عنه أنه ومع كل هذا فتبقى هناك فراغات صغيرة وهي الفراغات ذات الطابع الخاص التي أراد بها الفنان خلق نغم خاص وهو ما ترك أثرا فنيا كبيرا لدى المتلقي حين تأمله لمنمنماته.

واستطاع الواسطي أن يتمكن من الفراغ من خلال سيطرته على عناصره التشكيلية وعقلانية توظيفها داخل الإطار الفني مما لم يترك للفراغ أية قيمة ما عدا قيمته كخلفية للعمل من خلال تكرار العناصر أو تنوعها.

2-4 الوحدة :

وتعتبر من أبرز المبادئ في الفن الإسلامي وهي التي تعتبر من أبرز سماته، والوحدة هي واحدة من العناصر التشكيلية التي يوظفها الفنان للحصول على ترابط وانتظام الأشكال المختلفة فيما بينها ومن جهة أخرى مع الإطار التصميمي للمنمنمة لتخلق لنا تكوين متكامل ومتناسك بين مختلف القيم التشكيلية الأخرى كاللون والخط....

وقد عكست الوحدة بوصفها ظاهرة من مظاهر الفن الإسلامي اتجاه المجتمع التوحيدي في العقيدة بالإضافة إلى القيم الروحية للمجتمعات المسلمة، ومجمل القول أن الواسطي قد استطاع أن يترجم على قدر عال عناصر تصميمه داخل المنمنمة مع مراعاة العنصر الأهم سب النص المكتوب وهو ما يوحى لنا بوجود علاقة وترابط بين أجزاء عمله وهذا ما جعلها تتألف فيما بينها لينتج لنا السيادة ألا وهي من مبادئ التصميم، وتكويننا متماسكا وهو واحد من جملة المتطلبات الأساسية لأية عمل تصميمي.

وقد أبحر الواسطي عديد المفكرين والفلاسفة والفنانين من عصره إلى عصرنا هذا من خلال اكتشاف طبيعة العلاقة بين الأشياء المرتبة والت جاءت كتحليل لواقعه مستعملا في ذلك نظما هندسية من مستطيلات والتي أظهرت عمله ذو نسبة ذهبية إلى حد ما بالإضافة إلى أنصاف الدوائر، وكل هذا خلق لنا التناسب.

ومجمل القول أن شخصيته قد اختفت عند تجسيده للمنمنمات من خلال الوحدة فأبقى الإسلام كهوية للعمل الفني كما في سائر الفنون الإسلامية الأخرى.

5-2 الملمس :

114

ابتعاده عن الإسراف في استعمال الخامات الصلبة والخشنة وهذا ما يبين لنا مرة أخرى براعته ودقته في مزج الألوان واختيار المواد والتحليل البالغ لها قبل وضعها

على سطوح المنمنمة وهذا بالتفصيل الدقيق لتركيباته مما مكنه في الأخير من الحصول على المهارة المناسبة في ملأ المساحات بأسلوب رشيق ينتج لنا في الأخير ملمسا ناعما للمنمنمة والكشف عن الطبيعة السطح في المخطوط.

وخلاصة القول أن الغرض من وجود الملمس في المخطوطات قد جاء كتعبير من الفنان عن اهتمامه به وإعطاء الإحساس الصادق عن الخامة المستعمل.

2-6 الشكل :

ويعتبر الشكل من أكثر العناصر التكوينية دلالة في التصوير الإسلامي وهذا على غرار باقي الفنون الأخرى، وهو نتاج خطوط متتالية ومتألفة فيما بينها على الرغم من اختلاف تركزها في العمل الفني مشكلة فيما بينها مساحة متناسقة ومنظمة الحركة، وهي عبارة عن جزئيات سرعان ما تشكل لنا صفة الشكل الذي حتى وإن اختلف باختلاف تشكيلاته فسيبقى محافظا على وحدة ومضمون الفكرة المستهدفة.

حيث يرى "هيغل" أنه من غير المنطقي الفصل بين الشكل والمضمون، وهذا لما يقدمه كل واحد منهما من تكملة للأخر فبدون الأول لا وجود للأخر، ومن منظوره فالشكل لا يرقى إلى المرتبة العليا إلا عند اكتمال الموضوع¹.

وعلى الرغم من تعدد الأشكال وتنوعها في المنمنمات الإسلامية إلا أن الواسطي أولى اهتماما كبيرا لإنصاف الدوائر التي سرعان ما أخذ منها الأقواس التي لا تكاد تخلو منها مخطوطاته، ولعل سبب ذلك راجع بالأساس إلى العمارة التي ارتكزت كثيرا على الأقواس ومن ذلك مداخل المساجد والقصور والجسور التي ميزت عصره والتي اتخذت من أنصاف الدوائر رمزا لها وقد أصبحت فيما بعد مصدر إثارة في المشاهد التصويرية لمنمنمات الإسلامية.

وقد كان للأشكال التي استخدمها الواسطي دلالات روحية خاصة فيما يتعلق بملء الفراغات، حيث تمكن من استغلال الفضاء استغلالاً جيداً فجعله تارة منتظماً وتارة أخرى محدداً بينما نجد الجزء الثالث لا متناهي وهذا ما يتمحور عليه الفن الإسلامي بالأساس ليصل إلى عقيدة التوحيد من خلال منمنماته ويحافظ مرة أخرى بأسلوبه الخاص عن أهم ميزة في الفن الإسلامي وهذا على الرغم من تصنيفاته سواء أكانت تشكيلات هندسية أو أشكال طبيعية أو أشكال موضوعية أو غير موضوعية¹.

2-7 الظل والنور :

يعتبر أن كقيم هامة في تحديد اللباس العام للعمل الفني الإسلامي، خاصة وقد برز استخدام عامل الضوء جنباً إلى جنب في المشهد التصويري لتحقيق العمق كما أنه لم يأتي لإبراز العناصر أو لإعطائها حجماً أو بمعنى آخر القصد من توظيفه الحصول على التجسيم أو إبراز الإبعاد، بل جاء كدلالة على بسطة النور الإلهي في تصوير مشاهد حياة المجتمعات المسلم، ولا يخفى علينا كذلك إن الغرض من استعمال الواسطي للظل والنور ليس لتحديد الأوقات كالصباح والمساء فهو لا يعطي انطباعاً عن المشهد المصور بل أنه جاء كظاهرة طبيعية لخلق توازن بين أجزاء الطبيعة في العمل الفني².

فقد ساوى الواسطي في توزيعه للنور على كل الخطوط والمستويات في منمنماته وعلى أشكاله المختلفة مما سمح بخلق سيادة لجميع العناصر ولتحقيق اتزان بصري من خلال التخفيف من حدة الخامات المستعملة والمساهمة في الكشف عن طبيعتها.

¹ - م.د. شوقي مصطفى علي/تنوع أساليب تصوير مقامات الحريري- مجلة نابو للبحوث والدراسات بغداد - العراق ص 140
² - أنصار محمد عوض الله رفاقي/الأصول الجمالية الفلسفية للفن الإسلامي - جامعة حلوان صفر 1423 - أبريل 2002 ص 277